والنار والأحجار لمنفعة الناس فيعبدونها من دون الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله
يعني يتخذه ربا يطيعه فيما يأمره به وقيل الولي من الموالاة وهو الناصر فقد خسر خسرانا
مبينا لأن طاعة الشيطان توصله إلى نار جهنم وهو غاية الخسران فإن قلت في الآية سؤالان الأول
قال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا والنصيب المفروض هو الشيء المقدر القليل وقال في موضع
آخر لأحتنكن ذريته إلا قليلا وقال لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين وهذا استثناء
القليل من الكثير فكيف وجه الجمع قلت الجواب أن الكفار الذين هم حزب الشيطان وإن كانوا أكثر
من المسلمين في العدد لكنهم أقل من المؤمنين في الفضل والشرف وعلو الدرجة عند الله والمؤمنون
وإن كانوا أقل من الكفار لكنهم أكثر منهم لأن لهم الفضل والشرف والسؤدد والغلبة في الدنيا
وعلو الدرجة في الآخرة وأنشد بعضهم في هذا المعنى فقال

وهم الأقل إذا تعد عشيرة … والأكثرون إذا يعد السودد

وقيل إن إبليس لما نال من آدم ما أراد ورأى الجنة والنار وعلم أن للجنة أهلا وللنار أهلا فقال لأتخذن
من عبادك نصيبا مفروضا يعني الذين هم أهل النار السؤال الثاني من أين لإبليس العلم بالعواقب
حتى يقول ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم وقال في الأعراف ولا تجد أكثرهم شاكرين وقال في بني
إسرائيل لأحتنكن ذريته إلا قليلا والجواب من ثلاثة أوجه أحدها أن إبليس ظن أنه يقع منهم هذه
الأمور الذي يريدها منهم فحصل له ما ظنه ويدل على ذلك قوله تعالى ولقد صدق عليهم إبليس ظنه
فاتبعوه الوجه الثاني قال ابن الأنباري المعنى لأجتهدن ولأحرصن في ذلك لا أنه كان يعلم الغيب
الوجه الثالث قال العلماء ومن الجائز أن يكون قد علم ذلك من الملائكة بخبر من الله تعالى أن أكثر
الخلق لا يؤمنون وقوله تعالى يعدهم ويمنيهم يعني الشيطان يعد حزبه وأولياءه ويمنيهم
بوعده وتمنيه إياهم ما يوقع في قلب الإنسان في طول العمر ونيل ما أراد من الدنيا ومن
نعيمها ولذاتها وكل ذلك غرور فيجب على العاقل أن لا يلتفت إلى شيء من ذلك فربما يطول عمره
ولم يحصل له ما أراد منها ولئن طال عمره وحصل له مقصوده فالموت وراءه فينغص عليه ما هو فيه
وقيل يعدهم ويمنيهم بأنه لا جنة ولا نار ولا بعث فاجتهدوا في تحصيل اللذات الدنيوية وما يعدهم
الشيطان إلا غرورا يعني باطلا وضلالا أولئك يعني الذين اتخذوا الشيطان وليا مأواهم
جهنم يعني مرجعهم ومستقرهم جهنم ولا يجدون عنها يعني عن جهنم محيصا يعني معدلا
يعني مفرا ومعدلا يعني لا يعدلون عنها إلى غيرها ولا بد لهم من ورودها والخلود فيها لما ذكر
وعيد الكفار أتبعه بوعد المؤمنين فقال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم
جنات تجري من تحتها الأنهار يعني من تحت الغرف والقصور خالدين فيها يعني في الجنة
أبدا يعني بلا انقضاء ولا غاية والأبد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا انقطاع له ولا يتجزأ
كما يتجزأ غيره من الأزمنة لأنه لا يقال أبد كذا كما يقال زمن كذا وفي قوله خالدين فيها أبدا دليل
على أن الخلود لا يفيد التأبيد والدوام لأنه لو أفاد ذلك للزم التكرار وهو خلاف الأصل فعلم من ذلك
أن الخلود عبارة عن طول الزمان لا على الدوام فلما أتبع الخلود بالأبد علم أن المراد به الدوام الذي لا
ينقطع وقوله تعالى وعد الله حقا يعني وعد الله ذلك الذي ذكره وعدا حقا ومن أصدق من الله
قيلا يعني ليس أحد أصدق من الله وهو توكيد بليغ لقوله وعد الله حقا قوله تعالى ليس بأمانيكم
ولا أماني أهل الكتاب الأمنية أفعولة من التمني والتمني تقدير شيء في النفس وتصويره
فيها والأمنية هي الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء إذا وقع في نفسه وإرادته وفي المخاطب
بقوله ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب قولان أحدهما أنه خطاب للمسلمين وأهل الكتاب اليهود
والنصارى وذلك أنهم افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله

منكم

منكم وقال المسلمون نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضي على الكتب وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا
بكتابنا فنحن أولى بالله منكم والقول الثاني أنه خطاب لمشركي مكة في قولهم لا نبعث ولا نحاسب
وخطاب لأهل الكتاب في قولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة والمعنى ليس الأمر بالأماني إنما الأمر بالعمل
الصالح من يعمل سوءا يجز به قال الضحاك يقول ليس لكم ما تمنيتم ولا لأهل الكتاب ما تمنوا ولكن من عمل
سوءا يعني شركا فمات عليه يجز به النار وقال الحسن هذا في حق الكفار خاصة لأنهم يجازون بالعقاب
على الصغيرة والكبيرة ولا يجزى المؤمن بسيئ عمله يوم القيامة ولكن يجزى بأحسن عمله ويتجاوز عن سيئاته
ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تعالى ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا وهذا هو
الكافر فأما المؤمن فله ولي ونصير وقال آخرون هذه الآية في حق كل من عمل سوءا من مسلم ونصراني
وكافر قال ابن عباس هي عامة في حق كل من عمل سوءا يجز به إلا أن يتوب قبل أن يموت فيتوب الله عليه
وقال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين مشقة شديدة
وقالوا يا رسول الله وأينا لم يعمل سوءا غيرك فكيف الجزاء قال منه ما يكون في الدنيا فمن يعمل حسنة
فله عشر حسنات ومن جوزي بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته وبقيت له تسع حسنات فويل
لمن غلبت آحاده أعشاره وأما ما كان جزاء في الآخرة فيقابل بين حسناته وسيئاته فيلقى مكان كل سيئة
حسنة وينظر في الفضل فيعطى الجزاء في الجنة فيؤتي كل ذي فضل فضله ويدل على صحة هذا القول ما روي
عن أبي هريرة قال لما نزلت من يعمل سوءا يجز به بلغت من المسلمين مبلغا شديدا فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها
أخرجه مسلم وعن أبي بكر الصديق قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت من يعمل سوءا
يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر ألا أقرئك
آية أنزلت علي قلت بلى يا رسول الله قال فأقرأنيها فلا أعلم إلا أني وجدت انقصاما في ظهري
فتمطأت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شأنك يا أبا بكر قلت يا رسول الله بأبي أنت
وأمي وأينا لم يعمل سوءا وإنا لمجزيون بأعمالنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أنت يا أبا
بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس عليكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك
لهم حتى يجزوا به يوم القيامة أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وفي إسناده مقال وقد
روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي بكر وليس له إسناد صحيح وقوله ولا يجد له من دون الله وليا ولا
نصيرا قال ابن عباس يريد وليا يمنعه ولا نصيرا ينصره فإن قلنا إن هذه الآية خاصة في حق
الكفار فتأويلها ظاهر وإن قلنا إنها في حق كل عامل سوء من مسلم وكافر فالمراد لا ولي لأحد من دون
الله يوم القيامة ولا نصير فالمؤمنون لا ولي لهم غير الله وشفاعة الشفعاء فيهم تكون بإذن الله
فليس لهم أحد إلا الله وقوله تعالى ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
قال مسروق لما نزلت من يعمل سوءا يجز به قال أهل الكتاب نحن وأنتم سواء فنزلت هذه الآية فالمعنى
بين الله تعالى بهذه الآية فضيلة المؤمنين على غيرهم ولفظة من في قوله من الصالحات للتبعيض لأن
أحدا لا يقدر أن يستوعب جميع الصالحات بالعمل فإذا عمل بعضها استحق الثواب فأولئك يدخلون
الجنة ولا يظلمون نقيرا النقير نقرة في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة قال ابن عباس يريد
لا ينقصون قدر النواة وهذا على سبيل المبالغة في نفي الظلم ووعد بتوفية جزاء أعمالهم
من غير نقصان وقوله عز وجل ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن لما بين
الله تعالى أن الجنة لمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن شرح الإيمان وبين فضله فقال تعالى ومن أحسن
دينا يعني ومن أحكم دينا والدين هو المشتمل على كمال العبودية والخضوع والانقياد لله عز وجل
وهو الذي كان عليه إبراهيم صلى الله عليه وسلم واعلم أن دين الإسلام مبني على أمرين أحدهما

Copyright ... University